

الأولياء ومنهاج الكرامة بين أهل السنة وأهل الضلالة



أعدّه:

أبو عمر الدوسري (المنهج) – شبكة الدفاع عن السنة

يقول المدرس بالحرم النبوي العلامة الدكتور محمد أمان بن علي الجامي – رحمه الله تعالى-
تحت عنوان [الأولياء] :

الأولياء جمع ولي. والولي من تولى الله أمره وخصه بعنايته لصلاحه لأن الله يتولى الصالحين
ويحب المؤمنين ويدافع عنهم {إن الله يدافع عن الذين آمنوا}، وفي الحديث القدسي: ((من عادى
لي ولياً فقد أذنته بحرب)).

ويعتبر الصلاح والتقوى من العناصر الأساسية في الولاية ومن مستلزماتها: العلم ونعني بالعلم
معرفة الله بأسمائه وصفاته وآلئه جملة وتفصيلاً ومعرفة شرعه الذي جاء به رسوله المصطفى
ونبيه المرتضى عليه الصلاة والسلام وقد تولى القرآن الكريم تعريف الأولياء بما لا يترك مجالاً
للتردد أو التساؤل أو التوقف: {ومن أصدق من الله حديثاً} إذ يقول الله عز وجل: {ألا إن أولياء
الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، الذين آمنوا وكانوا يتقون} ويقول أيضاً: {إن أوليائه إلا
المتقون} وقد حصر القرآن –كما ترى- الأولياء فيمن يتصفون بصفة التقوى. والتقوى تستلزم
العلم والمعرفة –كما قلنا- لأن حقيقة التقوى امتثال الأمور واجتناب المنهيات خوفاً من عذاب
الله وسخطه وتطلعاً إلى رضائه وجنته وكرامته، ولا يتم ذلك إلا بالفقه في الدين. فالخير كله في
الفقه في الدين، كما أن الشر كله في الجهل بالدين والإعراض عنه. يقول الرسول الكريم في هذا
المعنى: ((من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين)) ولا يخفى على طالب علم المفهوم المخالف
للحديث. وهو أن مَنْ لم يرزق الفقه في الدين قد فاته الخير. وماذا بعد الخير إلا الشر؟.

هكذا بين الكتاب والسنة صفات أولياء الرحمن التي منها: العلم والمعرفة والإصلاح والتقوى.
وذلك يعني أن الأولياء هم العلماء العاملون والفقهاء المبرزون، حملة كتاب الله المتبعون لسنة
نبيه عليه الصلاة والسلام لنخلص إلى القول بأن الله لم يتخذ ولياً جاهلاً يجهل دينه وما جاء به
نبيه عليه الصلاة والسلام لنقضي بذلك على الزعم الشائع بين كثير من الناس أن الأولياء هم
أولئك الجهال المخادعون من الكهنة والمشعوذين من السحرة أحياناً الذين يسحرون أعين الناس
ثم يتظاهرون بفعل أشياء مثيرة، وهم في الواقع لم يفعلوا شيئاً، وكثير من أولئك الكهنة
يستخدمون الشياطين أو على الأصح تستخدمهم الشياطين لتوحي إليهم. وقد تأتي لهم بأموال
مسروقة فتن العامة أنهم من أولياء الرحمن ما يخبرون به أو ما يأتي إليهم من الأموال من قبيل
الكرامات وأنى لهم الكرام؟ بل الإهانة أولى بهم. حقاً، نهم مهانون إذ حرموا ولاية الله والأنس به
ووقعوا في أسر عدو الله الشيطان فأصبحوا أوليائه {ومن يهن الله فما له من مكرم}.

والذي أريد أن أصل إليه أنه لا تلازم بين الولاية وبين ظهور الأمور الخارقة للعادة. وفي هذا المعنى يحكى عن الإمام الشافعي رحمه الله قوله: "لو رأيتم رجلاً يطير في الهواء، أو يمشي على الماء، لا تقبلوا منه دعوى الولاية حتى تعرضوا أعماله على الكتاب والسنة" أو كلام هذا معناه. يعني الإمام الشافعي رحمه الله أن ظهور الأمور الخارقة للعادة ليس من مستلزمات الولاية؛ بل قد لا تظهر تلك الأمور على أيدي كثير من أولياء الرحمن لأنها ليست من صنع الأولياء. وإنما هي من فعل الرب تعالى الذي يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد وقد تظهر تلك الأمور على أيدي أناس غير صالحين كما سبقت الإشارة إلى هذا المعنى وكما سيأتي بيان ذلك إن شاء الله مفصلاً.

وبالجملة فإن من رزق الفقه في الدين يدرك تماماً أن باب الولاية أوسع مما يظنه كثير من العوام وأشبه العوام الذين ضيقوا مفهوم الولاية؛ بل غيروه فحصروا الولاية في بيوت معينة أو أشخاص معينين، يتظاهرون بالدروشة، وخفة العقل، ومبادئ الجنون أحياناً ويهزون هذيان وربما أخبروا الناس في مكان الضالة وعن بعض الحوادث التي تقع في أماكن بعيدة عن أماكن وجودهم بواسطة شياطينهم التي تنتقل إليهم الأخبار من أماكن بعيدة صادقة أو كاذبة هذا هو مفهوم الولاية عندهم ولا يخفى وجه خطأ هذا المفهوم، وقد استغل القوم جهل العوام فأثبتوا لأنفسهم منصباً وراثياً يرثه الأبناء عن الآباء فينتقل إلى الأبناء بطريقة أوتوماتيكية (تلقائية)، لأن القاعدة تقول كل من كان أبوه ولياً لا بد أن يكون ولياً ولا محالة. لأن الولاية عندهم غير مقيدة بقيود مكتسبة كالعلم والصلاح والتقوى؛ بل إن واقعهم على العكس من ذلك إذ يتصفون بالجهل والجرأة على الله والخروج على شرعه والابتداع في دينه وكراهة أوليائه وأهل طاعته من العلماء العاملين والدعاة الغيورين.

أقسام الأولياء

يتضح لنا مما تقدم أن الأولياء ينقسمون إلى قسمين:

- 1- أولياء الرحمن الذين تقدم الحديث عنهم وتولى القرآن تعريفهم وهم الذين تولى الله أمرهم ووقفهم وتفضل عليهم بالكرامات التي من أعظم أنواعها معرفة الحق وإتباعه والاستقامة التي تنتهي بالعباد إلى دار الكرامة (الجنة) نسأل الله من فضله.
 - 2- أولياء الشيطان الذين وثقوا صلتهم بالشيطان ونظموا معه حياتهم بعد أن قطعوا صلتهم بالله أو ضعفت على الأقل إذ لا يقع العبد في ولاية الشيطان وحزبه مع قوة صلته بربه أبداً. والله المستعان.
- وكما أن أولياء الرحمن تتفاوت درجاتهم عند الله، كذلك يتفاوت أولياء الشيطان في بعدهم عن الله، وذلك أمر معروف بحيث لا يحتاج إلى دليل.

الأمور الخارقة للعادة على أيدي أولياء الشيطان

وقد أوضحنا فيما تقدم ألا ملازمة بين الولاية وبين الأمور الخارقة للعادة وأنها قد تظهر على أيدي غير الصالحين، وبقي أن نعرف حقيقة تلك الأمور، فهي تنقسم إلى قسمين من حيث الحقيقة والكنه:

- 1- قسم يجريه الرب سبحانه على أيديهم استدراجاً يستدرجهم بها ليزدادوا إثماً على إثمهم عقوبة لهم على جريمتهم جريمة عبادة الشيطان وطاعته واتخاذة ولياً من دون الله، يستدرجهم من حيث لا يعلمون ويملي لهم ومن يراها أنها من الكرامات فهو إما جاهل أو متجاهل مغالط لحاجة في نفسه.

2- القسم الثاني: ما يجري على أيدي بعضهم من قبيل السحر، وقد أثبتت التجربة أن كثيراً من الدجالين مهرة في السحر فكثيراً ما يسحرون أعين الناس فيقوم أحدهم بأعمال غريبة ومثيرة وخارجه على المعتاد والقانون المتبع في حياة الناس مثل أن يلقي بنفسه في النار ثم يخرج منها قبل أن تحرقه أو تصيبه بأي أذى في جسمه، ومثل أن يتناول جمرة فيأكلها كما يأكل ثمرة حلوة والناس ينظرون إليه فيندهشون، أو يمشي على خط دقيق ممدود بين عمودين مثلاً وغير ذلك من الأعمال التي يعرفها في كل من يعرف القوم، وهو في واقع الأمر لم يعمل شيئاً من تلك الأعمال؛ بل كان على حالته العادية، إلا أنه سحر أعين الحاضرين فيخيل إليهم من سحره أنه يفعل شيئاً وأنه يطير أو يذبح نفسه أو يذبح ولده وكل ذلك لم يقع ولا بعضه.

فالطائفة الأولى المستدرجة والأخرى السحرة هم المعروفون عند السذج من عامة المسلمين أنهم أصحاب كرامات، ولما أدرك القوم أنه قد انطلى على العوام باطلهم لفرط جهل العوام وبعدهم عن الثقافة الإسلامية، استغلوا فيهم هذا الجهل وتلك السذاجة فاتخذوا الولاية المزعومة باباً من أبواب الدجل فكما يطور أهل العلم معلوماتهم، وأرباب المهن والصناعات منهم صناعاتهم حتى ينتجوا أحدث المصنوعات، كذلك يطور هؤلاء الأولياء أساليب دجلهم وخداعهم ليطير صيتهم وتزداد شهرتهم فيرتفع بذلك دخلهم وهذا الدخل هو الغاية عند القوم من دعوى الولاية والكرامة ومن الخداع المتطور.

ومن أحدث أساليبهم المتطورة في هذا العصر أن زعم بعضهم أن هذه التكاليف الشرعية من امتثال المأمورات واجتناب المنهيات أمور مؤقتة ولها حد تنتهي إليه ثم تسقط، وزعم هذا الزاعم أنه قد وصل تلك المنزلة فسقطت عنه جميع الواجبات وأبيحت له جميع المحرمات بحيث لا يقال في حقه هذا حرام أو حلال. أو هذا واجب وهذا مستحب. وهو يحاول بذلك أن يقتفي أثر رئيس الملاحدة وقطب وحدة الوجود ابن عربي الطائي وشاعر تلك الملة ابن الفارض ويحذو حذوهما. وتبدو الفكرة جديدة ومتطورة لدى كثير من الناس لغرابتها ولما أدخل عليها من بعض الزخرفة والزررشة حتى ظهرت الفكرة كأنها فكرة حديثة وهي في أصلها فكرة قديمة قدم كفر وحدة الوجود التي منشؤها تعطيل الصفات على طريقة الجهمية المعروفة وهي فكرة حديثة وهي في أصلها فكرة قديمة قدم كفر وحدة الوجود التي منشؤها تعطيل الصفات على طريقة الجهمية المعروفة وهي فكرة يؤمن بها كل صوفي -وللأسف- ويسعى لها بأنواع من المجاهدة في زعمهم وهو سر انتقادنا للصوفية وشطحاتهم. وما يؤخذ عليهم كثير جداً لو وسعنا التعداد، ولا يشك كل من له أدنى فقه في الدين أن فكرة وحدة الوجود ملة مغايرة للإسلام، وآخر التطورات التي علمناها في هذا الخصوص دعوى محمود محمد طه السوداني حيث زعم أن تلكم الفكرة الإلحادية التي يدعو إليها هي مضمون الرسالة الثانية من الرسالتين المحمديتين على حد زعمه، حيث زعم أن الرسول عليه الصلاة والسلام بعث برسالتين اثنتين. أما الرسالة الأولى فقد بلغها، وأما الرسالة الثانية فلم يبلغها، ويعلل ذلك بقوله: إن القوم الذين بعث فيهم رسول الله أول ما بعث ليسوا على استعداد لفهمها والعمل بها لأن مستواهم العقلي لا يؤهلهم لفهمها، أما الآن وقد نضجت العقول وتقدم الفكر البشري قد أن الأوان للدعوة إليها والعمل بها إلى آخر تلك الجعجة، المثيرة للضحك والبكاء في وقت واحد، نعم إنها تثير الضحك إذا نظرت إليها ككلام ساقط ليس له أي قيمة علمية وإنما هو هذيان لا ينطلي على العقلاء ومثيرة للبكاء حيث وصلنا نحن المسلمين إلى هذا المستوى من البرودة وضعف الغيرة على شريعة الله التي يتلاعب بها أمثال محمود ولا يجد رادعاً يوقفه عند حده؛ بل لا توجد غيبة إسلامية يحسب لها حساب في المجالات الرسمية والله المستعان.

ولعل بعض الحضور يحسب أنني أتحدث عن أساطير الأولين، وليس الأمر كذلك؛ بل إن صاحب هذه الدعوة حي يرزق بمقربة منا في السودان -كما قلت آنفاً ولا يزال- يعمل جاداً لهدم الرسالة الأولى، وليقيم على أنقاضها الرسالة الثانية المزعومة لـو استطاع إلى ذلك سبيلاً. وفي الواقع إن

الرجل مدع للنبوّة؛ ولكنه لم يستطع التصريح بها خشية أن يغضب الشعب السوداني غضبة إسلامية، فتكون نهاية له. لكنه لدهائه ولباقته استطاع أن يتظاهر بمظهر المصلح المجدد؛ علماً بأنه ليس لديه أي جديد؛ بل تنحصر فكرته في عقيدة وحدة الوجود التي يرأسها ابن عربي الطائي الملقب بمحي الدين مع عاشقهم المعروف بان الفارض ومن يدور في فلکها - كما سبق أن أشرت- مع محاولة السير مع الوادي حيث ما توجه، شرق أم غرب، كعادة المحترفين باسم الدين أو التجديد.

والمسألة في الأصل - كما قلت - نتيجة حتمية لعقيدة غلاة الجهمية الذين يعطلون صفات الرب تعالى وأسمائه حتى لا يبقى هناك إلا ذات مجردة عن جميع الصفات والأسماء التي لا يتصوره الذهن كما يتصور المحال والأمور الخيالية، وهذه العقيدة هي التي أفضت بالقوم إلى القول بالحلول والاتحاد ليتحقق وجود الله خارج الأذهان حالاً في مخلوقاته و متحداً معهم، هذا هو منشأ الحلول والاتحاد الذي هو آخر منزلة تنتهي إليها الصوفية ولها يسعون وفيها يتنافسون منهم، وهذه الفكرة كفر باتفاق المسلمين لأنها تجعل الرب سبحانه حالاً في مخلوقاته؛ بل يرى شارح الطحاوية أن فكرة الحلول والاتحاد أقبح من كفر النصارى، لأن النصارى خصوا الحلول بالمسيح وهؤلاء عمموا جميع المخلوقات، وقديماً قال زعيمهم ابن عربي: وما الكلب والخنزير إلا إلهنا *** وما الله إلا راهب في كنيسة

هذا ما ينتهي إليه أولياء الشيطان، وما قبل هذه المنزلة وسائل مفضية إلى هذه الغاية وما أرخصها من غاية وما أقبحها من كفر، وهو داء لا علاج له إلا آخر العلاج، وآخر العلاج الكي، فلا يردع هذا الإلحاد إلا قوة السلطان، لأن الله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن كما قال عمر رضي الله عنه؛ ولكن أين قوة السلطان اليوم؟؟!! إلا ما شاء الله.

الكرامات

إذا كنا نتحدث عن الأولياء وصفاتهم وأقسامهم، واستطردنا إلى بعض تصرفات أولياء الشيطان التي يظنها بعض الناس أنها من الكرامات، وبيننا أنها لا علاقة لها بالكرامة؛ إذا كنا قد تحدثنا هذا الحديث فلنتحدث الآن عن الكرامات وعن موقف الناس منها؛ بل قد استطردنا لمفهوم الكرامة لدى أتباع أولياء الشيطان وبيننا تصورهم الخاطيء، فلنحصر بحثنا هنا في كرامات أولياء الرحمن وتحقيق القول في ذلك بتوفيق الله.

موقف المعتزلة من كرامات الأولياء

انقسم الناس في مسألة كرامات أولياء الرحمن إلى قسمين: ناف ومثبت، وعرفت المعتزلة من بين الطوائف المنتسبة إلى الإسلام بنفي كرامات الأولياء بدعوى أن إثباتها يوقع في لبس إذ تلتبس الكرامة بمعجزة الأنبياء، وليس لديهم أي دليل أو شبه دليل سوى هذه الدعوى وهي دعوى كما ترى لا تنهض لمقاومة النصوص الصريحة التي سيأتي ذكرها إن شاء الله. وقد ناقشهم كثير من أئمة الهدى الذين عرفوا بمناضلة أهل البدع والهو، وفي مقدمتهم الإمام ابن تيمية في كتابه "الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان" وكتاب (النبوات). كما ناقشهم الإمام الشوكاني في بعض رسائله مثل رسالته التي سماها "بحث في الاستدلال على ثبوت كرامات الأولياء" ومن أراد الاطلاع على شبههم ودحضها فليراجع تلك المراجع.

موقف أهل السنة من كرامات الأولياء

أما أهل السنة فقد أجمعوا على إثبات كرامات الأولياء اعتماداً على النصوص التي سنذكرها الآن إن شاء الله، وفي الإمكان سرد كلامهم والوقائع التي ذكروها ولكني أرى الاكتفاء بما جاء في كتاب ربنا الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه وقد نضيف إلى آيات الكتاب ما صح عنه عليه الصلاة والسلام في السنة المطهرة فنكتفي بذلك لأن فيها الغنية لمستغن، وقد قص الله علينا في كتابه العزيز عن صالحى المؤمنين الذين لم يكونوا أنبياء وكراماتهم المتنوعة، فلنستمع إلى هذا النموذج من كراماتهم:

أ- قصة أولئك الفتية الذين آمنوا بربهم وثبتوا على إيمانهم وسط تلك البيئة الكافرة بعيدين عن المداهنة وقد قص القرآن علينا قصتهم البطولية إذ يقول الله عز وجل: {أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجبا} إلى أن قال وهو يصفهم بالإيمان والهدى والثبات: {نحن نقص عليك نبأهم إنهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى، وربطنا على قلوبهم إذ قاموا فقالوا ربنا رب السموات والأرض لن ندعو من دونه إلهاً لقد قلنا إذا شططاً}.
فطبيعي أن هذا ليس موقف أناس عاديين ولكن الله كرمهم بالإيمان والثبات على الهدى فصارحوا جبابة قومهم: بأنهم لا يدعون مع الله أحداً وهو إعلان بالكفر بألهة قومهم مع الثبات على الإيمان بالله وحده وهذه كرامة وأي كرامة.

ب- قصة مريم التي حكاها القرآن إذ يقول الرب تعالى: {كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقاً} إلى آخر الآية يقول في موضع آخر: {وهزى إليك بجدع النخلة تساقط عليك رطباً جنياً}.

ج- قصة الثلاثة الذين انطبقت عليهم الصخرة في الغار، وقصتهم معروفة لدى جمهور الحاضرين وهم أولئك الذين خرجوا في سفر ما ولما أدرتهم الليل دخلوا غاراً في الجبل فوقوا في حيرة من أمرهم فتشاوروا فقرروا أنه لا ينجيهم مما هم فيه إلا الالتجاء إلى الله فيدعونه بالأعمال الصالحة التي عملوها مخلصين له، فتوسل أحد هم إلى الله ببر الوالدين إذ كان له أبوان شيخان كبيران وكان يحسن إليهما ويبرهما كأحسن ولد، ومن بره بهما كان لا يتناول عشاء قبلهما هو وأولاده، وكان عشاؤهم حليب الإبل، ومن عادته أنه يقدم لهما عشاءهما في وقت مناسب، وفي ذات ليلة نأى به طلب الشجر لإبله، وجاء بعشائهما في وقت متأخر من الليل فوجدهما قد ناما، فكره أن يوقظهما خشية أن يقطع عليهما نومهما فيعكر راحتهما، كما لم يستحسن أن يتناول عشاءه قبلهما هو وأولاده، فظل واقفاً على رأسهما رجاء أن يستيقظا في أثناء الليل ولم يستيقظا إلى أن أصبح وهو واقف والحليب في يده، فتذكر هذا العمل الجليل فدعا الله به فأكرمه الله وأجاب دعوته فنزلت الصخرة قليلاً حتى دخل لهم الهواء فطمعوا في الخروج.

وأما الآخر فتوسل إلى الله بعفته والخوف من الله، وملخص قصته أنه كانت له ابنة عم، وكان يحبها كأشد ما يحب الرجل امرأة، فراودها فامتعت ورفضت طلبه إلى أن ألجأتها الحاجة إليه، فقدم لها مبلغاً من المال يقدر بمائة وعشرين ديناراً تقريباً مساعدة لها، وسداً لحاجتها، فأعاد المرادة بعد هذا الإحسان -فطالما استعبد الإحسان إنساناً- وألح في طلبه طبعاً، وأخيراً وافقت على تحقيق رغبته تحت إلحاحه وتأثير الإحسان ونفسها غير مطمئنة بالمعصية فمكنته من نفسها فقعد منها مقعد الرجل من المرأة، فصرخت في وجهه قائلة: اتق الله يا عبد الله، لا تقض الخاتم إلا بحقه -تعني- إلا بنكاح وبطريقة شرعية، هكذا ذكرته بالله، فتذكر لأنه مؤمن، {فذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين} فقام من مقعده ذلكم فوراً مالكاً نفسه قاهراً شهوته وهو موقف صعب كما ترون.

هذا ملخص قصة صاحب العفة، فقال وهو في الغار اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك فأفرج عنا ما نحن فيه، فأجاب الله دعوته وأكرمه بكرامته فنزلت الصخرة مرة أخرى، بيد أنهم لا يقدرين على الخروج؛ ولكن أملمهم صار أقوى في الخروج من ذي قبل ولا شك.

وأما الثالث: فتوسل إلى الله بحفظ الأمانة إذ عمل عند إجراء كثيرين فأخذ كل أجبر أجرته فذهب إلا واحداً منهم فترك أجرته، وبعد مدة طويلة جاء فطلب أجرته، فقال له: إن كل ما تره من الإبل والبقر والغنم من أجرتك لأنني نميته لك لما طال غيابك خشية أن تضيع، ولم يصدقه؛ بل قال: لا تستهزئ بي يا عبد الله، فقال له: لست مستهزئاً بك، وإنما الواقع ما قلته فسق مالك، فأخيراً أخذ أمانته بنمائها وزيادتها.

فقال الذي حفظ الأمانة، وهو يتوسل إلى الله بعمله هذا: اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك فأخرج عنا ما نحن فيه، فأجاب الله دعوته وأكرمه بإخلاقه وصدقه، فنزلت الصخرة فخرجوا يمشون، وهذا ملخص قصة الثلاثة.

ومما يدل على ثبوت الكرامات من السنة قوله عليه الصلاة والسلام: ((رب أشعث أغبر مدفوع بالأبواب لو أقسم على الله لأبره))، وقصة أسيد بن حضير وعباد بن بشر الأنصاريين وملخصها: أنهما كان عند النبي عليه الصلاة والسلام: في ليلة ظلماء فلما خرجا أضاعت عصا أحدهما فمشيا في ضوئهما فلما افترقا بهما الطريق أضاعت عصا الآخر، فمشي كل واحد منهما في ضوء عصاه حتى بلغ أهله، والقصة في صحيح البخاري في كتاب مناقب الأنصار. وقوله صلى الله عليه وسلم: ((لقد كان فيمن قبلكم من الأمم أناس محدثون فإن يكن في أمي أحد منهم فإنه عمر))، وفي لفظ: ((لقد كان فيمن كان قبلكم من بني إسرائيل رجال يكلمون من غير أن يكونوا أنبياء، فإن يكن من أمي منهم أحد فعمرو)).

واكتفي بهذا المقدار من نصوص الكتاب والسنة التي تثبت دون شك كرامات الأولياء وهناك نصوص أخرى مرفوعة وموقوفة، وكلها تثبت لكثير من الصحابة رضوان الله عليهم من كرامات أكرمهم الله بها، ومن راجع كتب الحديث وكتب السير يرى الشيء الكثير من الوقائع في هذا المعنى، وإذا كان كذلك فلا حاجة بنا إلى سرد قصص أو روايات لإثبات كرامات الأولياء من أقوال التابعين وتابعيهم ومن بعدهم إلى يوم الناس هذا ليقيني الذي لا يخالطه شك بأنكم أكثر تطلعاً إلى سماع النصوص منكم إلى سماع القصص والحكايات والروايات وهو موقف محمود تغبطون فيه والله الحمد والمنة.

وبعد لعلني وصلت بهذه المحاولة إلى بيان التصور الصحيح في مسألة الأولياء وكراماتهم على ضوء الكتاب والسنة كي يتبين الحق من الباطل والحق أبلج والباطل لجلج وهو وسط بين التفريط والإفراط.

الموقف السليم من الأولياء

إذا كنا قد تحدثنا عن الأولياء والكرامات، وأثبتنا الولاية بشكل واضح، ودعمنا حديثنا بنصوص الكتاب والسنة، ثم أثبتنا الكرامات كذلك إثباتاً يعتمد على الكتاب والسنة، بقي أن نفهم ما هو الموقف السليم في معاملة الأولياء في نظر الإسلام؟ وقبل أن أجيب على هذا التساؤل استحسن أن أوضح السبب المثير لهذا التساؤل، وذلك هو موقف جمهور المسلمين المحزن من الأولياء وهو الغلو في الصالحين الذي يصل أحياناً إلى حد العبادة، بدعوى المحبة والتقدير، ومن يذهب إلى تلك الأضرحة المنتشرة في أكثر عواصم المسلمين ومدنهم يرى عدداً كبيراً من المسلمين

معتكفين عند تلك الأضرحة ليتبركوا بها أو بأصحابها وربما وصل هذا التبرك إلى حد الطواف بالضريح؛ بل حد السجود على عتبة باب الضريح، والأدهى والأمر أن يجد هذا السادن الذي يسجد لغير الله ولا يلهج لسانه إلا بذكر صاحب الضريح من يفتي له بجواز ذلك وأنه ليس من باب الشرك، وإنما هو باب محبة الصالحين أو التوسل بهم، وهذا المفتي أو الفتان على الأصح معدود من علماء المسلمين المشار إليهم، والله المستعان وإليه المشتكى.

إنه لموقف خطير! العامي يقع في عبادة غير الله جهلاً، والعالم يفتي بجواز ذلك ويجد له تفسيراً وتأويلاً وتخريجاً، وخطورته تأتي من حيث أصبح الولي ندأ لله في هذا التصور وشريكاً له في استحقاق العبادة باسم المحبة أو التبرك بفتوى ممن ينتسبون إلى العلم ويجهلون حق الله على عباد الله، أعود فأقول: هذا الموقف وهذا التصور الذي يسود صفوف العوام وأشباه العوام هو الذي أثار تساؤلي.

ما هو الموقف السليم من الأولياء؟؟!!

فأما الجواب عليه: أن الموقف السليم هو عدم الغلو فيهم مع عدم الجفاء والاستخفاف بهم وإيذائهم؛ بل الواجب محبتهم في الله وموالاتهم، ولك أن تطلب منهم الدعاء في حياتهم ويسمى الاستشفاع بهم، أو التوسل بهم. ويجب أن نفرق بين محبتهم في الله ومحبتهم مع الله، فمحبتهم في الله عمل صالح، وأما محبتهم مع الله فعمل غير صالح؛ بل هو يريد الشرك أو الشرك ذاته. ويختلف ذلك باختلاف ما يقوم بقلب العبد، وسر التخبط لدى كثير من المسلمين والخلط في عبادتهم هو عدم التفريق بين الحقوق مما جعلهم يصرفون كثيراً من حقوق الله على العباد للعباد أنفسهم.

الحقوق الثلاثة

إن الدارس لكتاب الله وسنة رسول الله، والفاهم لمعنى كلمة التوحيد حق فهمها يستطيع أن يستنتج الحقوق الثلاثة التي يأتي شرحها، ومعرفة تلك الحقوق تحدد للعبد السير إلى الله والدعوة إليه على بصيرة قبل أن يخلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً، ويخرج عن الصراط المستقيم ويتخبط في بنيات الطريق.

1- حق الله على عباده وهو أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً في عبادته، وذلك بعد تصور مفهوم العبادة بأوسع نطاقها، وقد وجه النبي عليه الصلاة والسلام سؤالاً إلى معاذ ذات مرة هكذا: ((يا معاذ أتدري ما حق الله على العباد وما حق العباد على الله)) ولم يسع معاذاً إلا أن يقول: الله ورسوله أعلم، فقال النبي عليه الصلاة والسلام -بعد أن أثار انتباهه ولعلها المقصود، من السؤال- قال: ((حق الله العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً)) الحديث، وهو معنى قولنا أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له.

2- حق الرسول على أتباعه الذي يؤخذ من قولهم أشهد أن محمداً رسول الله، وحقيقة ذلك محبة رسول الله عليه الصلاة والسلام المحبة الصادقة التي تثمر الطاعة والإتباع وعبادة الله بما جاء به فقط، وهو المعنى الذي يشير إليه الحديث الشريف: ((لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده والناس أجمعين)).

3- حقوق عباد الله الصالحين تلك الحقوق التي نستطيع أن نستنتجها من قوله عليه الصلاة والسلام: ((لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه)) وقوله عليه الصلاة والسلام: ((ومن عادى لي ولياً فقد آذنته بحرب))، وغير ذلك من النصوص الكثيرة.

فمعرفة هذه الحقوق، ثم إعطاء كل ذي حق حقه أمر له أهميته ولا سيما حق الله على عباده، تجب العناية به علماً وعملاً لأنه الغاية التي من أجلها خلق الإنسان والتقصير في هذه الغاية ذنب لا يغتفر إلا لمن تاب وآمن وعمل عملاً صالحاً.

وهذا التقصير واقع من كثير من المسلمين -مع الأسف الشديد- وهو سر اختيارنا لهذه النقطة ضمن النقاط الثلاث، رجاء أن ننبه إلى هذا الخلط الشائع بين جمهور المسلمين من إدخال بعض الحقوق في بعض؛ بل وصرف كثير من حقوق رب العالمين لعباد الله الصالحين بدعوى محبتهم كنتيجة لهذا التقصير، والله المستعان. أه كلامه بتمامه.

ولقد رأيتُ أن أتم هذه الدرة العقدية الغالية بنقل مباركٍ عن أئمة الدعوة السلفية في هذا القرنين الماضيين، وقد استفدنا من الشيخ د- عبدالعزيز العبداللطيف من كتابه الرائع دعاوى المناوئين لدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب، حيث ينقل:

(وأقر بكرامات الأولياء، وما لهم من المكاشفات، إلا أنهم لا يستحقون من حق الله تعالى شيئاً، ولا يطلب منهم ما لا يقدر عليه إلا الله) (1). ويقول أيضاً:

(وقوله: { وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه } (2) إلى آخره. هذا وحي إلهام، ففيه إثبات كرامات الأولياء) (3).

ويذكر الشيخ محمد بن عبد الوهاب الواجب في حق أولياء الله الصالحين فيقول: (.. الواجب عليهم حبهم واتباعهم والإقرار بكراماتهم، ولا يجحد كرامات الأولياء إلا أهل البدع والضلال، ودين الله وسط بين طرفين، وهدى بين ضلالتين، وحق بين باطلين) (4). ويؤكد أتباع الدعوة - من بعد الشيخ محمد بن عبد الوهاب - هذا الاعتقاد ويقررونه. فجد أن الإمام عبد العزيز الأول يشير إلى حقوق أولياء الله، مع بيان الفرق بين الولي الحق، وبين مدعي الولاية - كذباً وزوراً - فقال رحمه الله:

(وكذلك حق أوليائه محبتهم والترضي عنهم والإيمان بكراماتهم، لا دعاؤهم، ليجلبوا لمن دعاهم خيراً لا يقدر على جلبه إلا الله تعالى، أو ليدفعوا عنهم سوءاً لا يقدر على دفعه إلا هو عز وجل، فإن ذلك عبادة مختصة بجلاله تعالى وتقدس.

هذا إذا تحققت الولاية أو رجيت لشخص معين كظهور اتباع سنة وعمل بتقوى في جميع أحواله، وإلا فقد صار الولي في هذا الزمان من أطال سبخته، ووسع كفه، وأسبل إزاره، ومد يده للتقبيل، وليس شكلاً مخصوصاً وجمع الطبول والبيارق، وأكل أموال عباد الله ظلماً وادعاءً، ورغب عن سنة المصطفى صلى الله عليه وسلم، وأحكام شرعه) (1).

وبين الشيخ عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب بعضاً من حقوق الأولياء.. لكن دون الغلو فيهم فيقول رحمه الله:

(ولا ننكر كرامات الأولياء، ونعترف لهم بالحق، وأنهم على هدى من ربهم، مهما ساروا على الطريقة الشرعية والقوانين المرعية، إلا أنهم لا يستحقون شيئاً من أنواع العبادات، لا حال الحياة، ولا بعد الممات بل يطلب من أحدهم الدعاء في حالة حياته، بل ومن كل مسلم) (2). وينص الشيخ عبد العزيز الحنين على ما قرره أسلافه فيقول - بياناً لحق الأولياء -:

وحق أوليائه محبتهم، والترضي عنهم، والإيمان بكرامتهم، لا عبادتهم ليجلبوا لمن دعاهم خيراً لا يقدر على جلبه إلا الله تبارك وتعالى ويدفعوا عنهم سوءاً لا يقدر على دفعه أو رفعه إلا الله، لأنه عبادة مختصة بجلاله سبحانه.. (3).

وقد سئل العلامة الشيخ عبد الرحمن بن حسن عن كرامات الأولياء، فأجاب على ذلك فكان مما قاله:

(مسئلة: كرامات الأولياء حق، فهل تنتهي إلى إحياء الموتى وغيرها من المعجزات؟
(الجواب: كرامات الأولياء حق عند أهل السنة والجماعة، والولي أعطي الكرامة ببركة اتباعه للنبي صلى الله عليه وسلم، فلا تظهر حقيقة الكرامة عليه، إلا إذا كان داعياً لاتباع النبي صلى الله عليه وسلم بريئاً من كل بدعة وانحراف عن شريعته صلى الله عليه وسلم، فببركة اتباعه يؤيده الله تعالى بملائكته وبروح منه.. (4).

ويشير محمود شكري الألوسي - رحمه الله - إلى وجوب الإيمان بكرامات الأولياء، فيقول:
(وأما الجواب عن مسألة الكرامات فيقال: إن كرامات الأولياء حق لا شبهة فيه، وهي ثابتة بالكتاب والسنة، ولشيخ الإسلام قدس الله روحه كتاب جليل في ذلك سماه الفرقان بين أولياء الشيطان وأولياء الرحمن)(5).

ويوضح الشيخ سليمان بن سحمان معتقدهم في كرامات الأولياء، فيقول في كتابه (الأسنة الحداد في الرد على علوي الحداد):

(واعلم أننا لا ننكر الكرامات التي تحصل لأولياء الله، إذا صدرت على القانون المرضي والميزان الشرعي، فإن أولياء الله هم المتقون المقنون بمحمد صلى الله عليه وسلم، فيفعلون ما أمر به، وينتهون عما نهى وزجر.. فيؤيدهم الله بملائكته وروح منه، ويقذف الله في قلوبهم من أنواره، ولهم الكرامات التي يكرم الله بها أوليائه المتقين..(6).

ويقول ابن سحمان في قصيدته (عقود الجواهر واللآلئ في معارضة بدء الأمالي)، حيث تحدث عن كرامات الأولياء، وبيّن أن خوارق العادات إما أن تكون أحوالاً شيطانية، أو كرامات فقال رحمه الله:

وكل كرامة ثبتت بحق *** فحق للولي بلا اختلال
نوال من كريم حيث كانوا *** بطاعة ربهم أهل انفعال
وليس لهم نوال أو حياء *** لمن يدعوهمو من كل عال
وإن الخرق للعادات فاعلم *** على نوعين واضحة المثل
فنوع من شياطين غواه *** لمن والاهمو من ذي الخيال
ونوع وهو ما قد كان يجري *** لأهل الخير من أهل الكمال
من الرحمن تكريمة وفضلا *** لشخص ذي تقى سامي المعالي
ولكن ليس يوجب أن سيدعى *** ويرجى أو يخاف بكل حال
فما في العقل ما يقضي بهذا *** ولا في الشرع يا أهل الوبال (1)

ونختم هذه النقول النفيسة بما أورده الشيخ عبد الله بن بلهيد - رحمه الله - في خطابه الذي ألقاه أثناء الاجتماع بين علماء نجد وعلماء مكة المكرمة، فقال - ذكراً حقوق أولياء الله -:

(وكذلك أولياء الله تجب محبتهم، والإقرار بفضائلهم على اختلاف مراتبهم، وما يجريه الله على أيديهم من الكرامات، وخوارق العادات، ولا ينكر كرامات الأولياء إلى أهل الله، لكن يجب أن يفرق بين أولياء الله وغيرهم فإن أولياء الله هم المتقون العاملون لله بطاعته، كما قال تعالى في وصفهم { ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون. الذين آمنوا وكانوا يتقون.. (2)

فمن كان مؤمناً تقياً كان لله ولياً ليس إلا.. (3)

من خلال هذه النقول نلاحظ أنها متفقة على إثبات كرامات الأولياء، والإقرار بها، ومتفقة على وجوب محبتهم والاعتراف بفضائلهم ومناقبهم. كما أنها توضح أن الولي لله - حقاً - هو من كان

مؤمناً متبعاً لسنة المصطفى صلى الله عليه وسلم، فليست الولاية مجرد لبس زيٍّ مخصوص، وإسبال الإزار، وإطالة السبحة، ومد اليد للتقبيل، مع ترك اتباع السنة النبوية.. وهذه النقول تؤكد النهي عن الغلو في الأولياء، فلا يجوز صرف شيء مما يستحقه الله تعالى لهم، فحق الأولياء هو المحبة والتقدير وإثبات الكرامات لهم فلا جفاء في حقهم وليس من حقهم أن تصرف بعض أنواع العبادة – التي يجب أن تكون لله وحده – لهم، فلا غلو في قدرهم فاختار أئمة الدعوة – بهذا المسلك – دين الله الذي هو وسط بين طرفي في الغلو والجفاء.

<http://saaid.net/monawein/sh/10.htm>

(*) للاطلاع على الهوامش والتعليقات حمل كتاب دعاوى المناوئين على ملف وورد من هذه الصفحة

<http://saaid.net/book/open.php?cat=7&book=980>